المالكي كان أول الحاضرين

كرم نعمة
كاتب عراقي
مقيم في لندن

لنفترض أن نوري المالكي وهو في منزله سمع صوت الانفجار، لكن ذلك لا يمنعنا من التشكيك بذلك الافتراض، وأنه كان يعرف مسبقا وينتظر الحدث ليكون أول الشهود على عملية الاغتيال.

المالكي استحوذ على أحد أفخم القصور داخل المنطقة الخضراء بصفته رئيسا للوزراء آنذاك، لكن عندما انتهت مهامه، ضحك بشدة على الذين طلبوا منه إخلاء المنزل على اعتبار أنه ملك للدولة. كان جزء من الصفقة بعد تكليف حيدر العبادي برئاسة الحكومة عام 2014، أن يبقى المالكي في القصر في عقد مفتوح مع الدولة. لا أحد حينها كان قادرا على رفض ذلك العقد مثل كل العقود المجحفة بحق القانون، بعدما تشبث المالكي بالمنصب فكيف المنزل! ومنذ عام 2006 يستحوذ المالكي على القصر المبني في عهد النظام السابق، بصفته ملكا شخصيا له ولحزب الدعوة الإسلامي الذي يتزعمه.

وعلى مسافة ليست بعيدة وفي المنطقة الخضراء نفسها يتخذ رئيس الوزراء مصطفى الكاظمي منزلا سكنا له منذ سنوات، ليس بفخامة القصر الذي استحوذ عليه المالكي. بعض المعلومات تقول إن المنزل يعود أصلا لأسرة المعماري العراقي محمد مكية الذي يرتبط ابنه كنعان بعلاقة مع الكاظمي منذ سنوات.

الجاران في المنطقة الخضراء، المالكي والكاظمي، يعبران عن واقع الكراهية الشخصية في الليل السياسي العراقي المستمر، يمكن اتخاذها مثالا لانعدام القيم السياسية في "العراق الديمقراطي".

أن تكن لجارك الضغينة وتترقب موته، أو على الأقل تكون أول الشهود على مقتله، ذلك ما حصل ليلة محاولة اغتيال الكاظمي. لكن من استمتع بمعركة ليلة قصف منزل الكاظمي، لا أجد الكثير من العراقيين بقدر الذين عبروا عن سعادتهم في ليلة قصف قاسم سليماني وأبومهدي المهندس. مع ذلك هناك في العراق وخارجه من يفعل الكثير اليوم من أجل الاستفادة من الانقسام الشيعي بعد ليلة القصف الفاشلة.

التقارير الصحافية تذكر أن المالكي كان أول الواصلين إلى منزل الكاظمي القريب من منزله في المنطقة الخضراء. فطبقا لمقربين من المالكي، فإن الأخير ما أن سمع أصوات الانفجارات في منزل جاره حتى هرع مع أفراد حمايته لتفقد المنزل الذي طاله القصف.

> أن تكن لجارك الضغينة وتترقب موته أو على الأقل تكون أول الشهود على مقتله ذلك ما حصل ليلة محاولة اغتيال الكاظمي عندما كان مصطفى الكاظمي أول الواصلين إلى المنزل المقصوف

بالطبع لنا أن نتخيل المشهد لحظتها، وكل الافتراضات ستكون واقعية ومعقولة وإن لم نكن هناك، فالمالكي كان يترقب أن يرى أوصال جثة الكاظمي مقطعة، كما أنه من المفترض أن يصور أفراد حمايته بهواتفهم المحمولة مشاهد الموت، لنشرها لاحقا.

لا شيء من هذا حصل، فالكاظمي كان خارج المنزل أثناء قصفه، والصور المنشورة توضح لنا الأضرار غير المؤثرة كثيرا مثلما تكشف عن تواضع المنزل الذي يقطنه رئيس الحكومة العراقية.

من البساطة بمكان أن يصل المراقب إلى المؤشرات القوية التي توضح الكراهية المعلنة التي يكنها المالكي إلى إياد علاوي، أو مقتدى الصدر مثلا، لكن المالكي الذي تعلم الدروس السياسية المفيدة في الأروقة الإيرانية، كان عليه أن يكون أكثر حذرا مع الكاظمي وهو يضمر له الكراهية. لذلك يرى فيه خصما لمشروع سياسي وليس مجرد ضغينة شخصية وتنافسا على الحصة من ثروة العراق المهدورة، فبينما المالكي لا يستطيع التخلص من طائفيته السياسية، يحاول الكاظمي التحرك في المساحة الوطنية في خطابه. والمالكي الذي جعل العراق حصة إيرانية بقي يحسبها الجيران العرب على طهران، فتح الكاظمي الأبواب أمام عروبة العراق. بينما بقي حذرا في علاقته مع إيران بغية تجنب غضبها عليه.

لا توجد شراكة بين الرجلين ولا أحد من العراقيين يترقب أن يتعاونا من أجل المصلحة الوطنية. كل ذلك تحول إلى عدم اليقين بينهما، ومن ثم إلى مواجهة فعلية نفذتها الطائرات المسيرة وبصناعة إيرانية. جعلت الكاظمي يعلن في النهاية أنه يعرف القتلة، دون الإعلان الواضح عنهم.

تلك المعادلة تكفي لندرك أن عداوة المالكي للكاظمي لا تقل عن عداوته للصدر، لذلك يسعى لإقصائه بأي طريقة ممكنة. والتقارير التي تتحدث عن كونه أول الحاضرين للمنزل المقصوف بطائرة مسيرة، يريد أن يوثق شهادته أمام التاريخ بكونه أول من حضر مقتل الكاظمي!

أرى أن علاقة المالكي بالكاظمي تكشف لنا طبيعة السياسة التي تجري في العراق، مع أن هذه المفردة تصل متأخرة إن لم تحدث ضررا عند إطلاقها على الحاكمين في العراق بعد عام 2003، السياسيون منهم ورجال الدين. في حقيقة الأمر لا وجود لمفاهيم السياسة التي يمكن التعويل عليها. هناك ببساطة ما يمكن أن نسميه لصوص دولة، بعضهم تعلم متأخرا شد ربطة العنق. لا مفاهيم للتفاوض الوطني لديهم بقدر ضمان حصتهم من سرقة الدولة. هؤلاء اللصوص يمتلكون ميليشيات طائفية مجرمة وظيفتها الاغتيال المعلن إن كان الأمر متعلقا بالناشطين والمتظاهرين الرافضين للرثاثة السياسية القائمة. أما عندما يتعلق الأمر بمن يتقلدون المناصب العليا، فالطائرات المسيرة حل جيد.

نجاة الكاظمي من الاغتيال فرصة لرفع رصيده السياسي، لكنها أيضا تضعه بموضع اختبار سياسي أمام العراقيين عن جديته ووطنيته في آن واحد عندما لا يدع القتلة الإفلات من العقاب مرة أخرى. عندها سيرفع يده أمام العراقيين باعتباره أول من يمتلك قوة قانون الردع في عراق ما بعد 2003. دعونا نتوقع ذلك من أجل الأمل في استعادة البلاد المخطوفة!

المصالح الجزائرية – الفرنسية لا تؤالف بين القلوب

صابر بليدي
صحافي جزائري

ينقسم الرأي العام الجزائري إلى مواقف مختلفة بشأن العلاقة مع فرنسا، وإذ يرفض معارضون أي استقواء بالخارج بما فيهم باريس، في قضية التعاطي مع السلطة والوضع الداخلي بشكل عام، إلا أن ارتياح البعض منهم للتصريحات والمحتويات الإعلامية التي تنتقد السلطات الجزائرية يبدو جليا، بينما يتصاعد منسوب الكره لفرنسا لدى قطاع آخر إن لم يكن مناصرا للسلطة فهو يتقاطع معها في مفعول التاريخ والذاكرة الجماعية.

لم تستطع ستة عقود، منذ استقلال الجزائر عن فرنسا عام 1962، محو آثار قرن وثلث قرن من الاستعمار ومن الممارسات الوحشية المتراكمة، لتبقى مع ذلك علاقة الجزائريين بفرنسا علاقة مميزة، ولا يمكن قراءتها بمعزل عن الموروث التاريخي حتى لدى الأجيال الشابة.

وباستثناء غالبية النخب الحاكمة التي تظهر تناغما مع فرنسا ولو كان خلف الستار، فقد هرّب رموز ووجوه محسوبة على السلطة السابقة 50 مليار يورو تقريبا على مدار 15 عاما، بحسب كتاب صدر في باريس، فإن الجزائريين من مختلف التيارات يتقاسمون مواقف متقاربة في مسألة كراهية فرنسا، فالمعارضون يرون أن الإليزيه هو الذي يدعم السلطة "غير الشرعية" في البلاد، بينما معسكر السلطة يعتبر هؤلاء موالين لباريس ويعملون لصالح أجندة خارجية وفرنسية تحديدا، ولا يبقى إلا خيط رفيع يجمع هؤلاء.

وعكس رفض النائب عن الجالية الجزائرية في فرنسا سمير سعابنة العرض الوزاري الذي قدم له في حكومة عبدالمجيد تبون الأولى حجم العلاقة الوثيقة لتلك النخب مع فرنسا كدولة نموذجية ومتحضرة وقوية، لأنه لم يتنازل عن جنسيته الفرنسية وفق مقتضيات دستور البلاد، مفضلا بذلك الجنسية المكتسبة على وزارة في البلد الأم.

ورغم مرور ستة عقود على فك القيد بين الطرفين، إلا أن البلدين لم يستطيعا إحداث القطيعة بين مرحلة ما بعد الاستقلال وما قبله، فعلى مدار تلك الحقبة ظل مجرد تصريح أو مقال في صحيفة أو تسجيل تلفزي يهز العلاقة التي وصلت في محطات كثيرة إلى حالة تناغم لافتة في ثمانينات القرن الماضي وخلال العشريتين الأخيرتين، لتتأكد بذلك الهشاشة التي فرضها الماضي على الحاضر والمستقبل.

وتبقى فرنسا لأسباب تاريخية وثقافية ولغوية قبلة مفضلة لدى الجزائريين، حيث يتواجد على أراضيها نحو ستة ملايين مهاجر في وضع عادي، وعشرات الآلاف من المهاجرين السريين، فضلا عن 50 ألفا طلبوا الحصول على جنسيتها خلال السنوات الأخيرة، لكن كل ذلك الثقل البشري لم يغير من معادلة العلاقة الوجدانية للجزائريين مع فرنسا حتى ولو كانوا في قلب الشانزلزيه.

> الجزائريون يتقاسمون مواقف متقاربة في مسألة كراهية فرنسا، فالمعارضون يرون أن الإليزيه هو الذي يدعم السلطة «غير الشرعية» في البلاد بينما معسكر السلطة يعتبر المعارضين موالين لباريس ويعملون لصالح أجندة خارجية

والنص القانوني، الذي أعدته الداخلية الفرنسية منذ مدة حول حظر حمل الرايات غير الفرنسية في التظاهرات والاحتفالات الشعبية، واحد من تجليات العلاقة الوجدانية المعقدة. وذلك بعد أن أبدى الرئيس إيمانويل ماكرون انزعاجا شديدا من شبان جزائريين في فرنسا احتفلوا بانتصارات منتخب كرة القدم بالرايات الوطنية، ورددوا الأهازيج والأناشيد الموروثة عن الحرب الدعائية خلال ثورة التحرير.

لكن ذلك لا ينفي وجود تيار فرنكفوني، على قلته، فهو مهيكل بشكل عمودي بين مؤسسات ومفاصل الدولة، معروف بولائه لفرنسا ثقافة ولغة وأيديولوجية، وإن كان لا يجرؤ على الإقرار بأنه امتداد للطابور الخامس (الحركي)، لا يلبث أن يدافع عن المصالح الفرنسية في الجزائر، وفوق ذلك هو متعاطف مع "الإلهام الباريسي" و"حضارة الأنوار"، ولو أن نفوذه محدود في الأوساط الشعبية، وما يميز منصاته الإعلامية والمالية والإدارية هو العزلة الشعبية.

وتحيل الرواية التاريخية حول إعداد الجنرال شارل ديغول أحزمة بشرية مشحونة بالنزعة الفرنكفونية لزرعها في الجيش والإدارة والإعلام عندما همّت بلاده بمغادرة الجزائر في 1962 من أجل الإبقاء على الوصاية الفرنسية على الجزائر كمستعمرة قديمة، إلى هيمنة ذلك التيار على مفاصل الدولة بعد الاستقلال وعمله على تطهيرها من منتسبي جبهة وجيش التحرير.

استمرت الهيمنة الرسمية لكنها لم تغير مشاعر الجزائريين الموالين لثورتهم التحريرية ولتضحيات آبائهم وأجدادهم، ولذلك لم تحقق فرنسا التغيير المنشود في قلوب وعقول هؤلاء.

فرنسا راهنت على نخب عسكرية وإدارية وإعلامية وثقافية للإبقاء على هيمنتها ونفوذها، لكنها لم تفكر على ما يبدو في الوصول إلى قلوب الجزائريين خاصة الأجيال الشابة، فتلك النخب البيروقراطية المنبوذة من طرف الشارع لم تحقق التعاطف الشعبي حتى لنفسها فكيف توفق في تحقيقه لمن نَصّبَها، وفوق ذلك ساهمت في توسيع فجوة الحساسية حول أي عيد أو ذكرى تاريخية، لتتأجج معها مشاعر الكراهية معيدة للأذهان ممارسات فرنسا القديمة.

وأوجز مقطع من تصريح الرئيس تبون لمجلة دير شبيغل الألمانية حجم المشكلة التي تعاني منها فرنسا في ما يتصل بالجزائريين، فقال "لقد تصرف ماكرون بعقلية أجداده الاستعماريين"، وهي الذهنية المستمرة في فرنسا، حيث لم تستطع النخب الحاكمة المتعاقبة التخلص من إرث النظرة الاستعمارية والقطع مع المرحلة القديمة، فالرؤية التي يريد هؤلاء رسمها عادة ما تنطلق من ذلك الماضي الذي يحتاج إلى خطوات جريئة وقوية، من أجل إرساء علاقات وجدانية ومواقف جديدة قائمة على الندية والقيم الإنسانية.

العلاقات الجزائرية – الفرنسية هي نموذج لعلاقات نادرة في العالم الحديث، فإذا كانت المصالح المشتركة هي عنوان العلاقات الثنائية والإقليمية والدولية، فإن العلاقات المذكورة تبقى رهينة المشاعر الجمعية وتنقسم بين ولاء وتنافر وجداني يمتد بين الأجيال وعبر العقود المتعاقبة، فلا النخب الفرنسية الحاكمة تخلصت من النزعة الماضية، ولا الأجيال الجزائرية أشبعت حاجتها النفسية لتجاوز ما تعرض له الآباء والأجداد.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk